### خمسة عشر مثقفاً عالمياً:

# ما يجري حالياً هدفه تصفية الشعب الفلسطيني

■ بدا الفصل الاخير في النزاع بين اسرائيل وفلسطين يوم اختطفت قوات الجيش الاسرائيلي طبيباً واخاه وهما مدنيان فلسطينيان من غزة، هذه الواقعة التي كاد ذكرها ان يغيب تماماً باستثناء الصحافة التركية التي اوردت النبأ. وفي اليوم التالي قام الفلسطينيون بأسر جندي اسرائيلي عارضين التفاوض حول تبادل الاسرى القابعين في سجون اسرائيل حيث يوجد فيها ما يقارب عشرة آلاف سجين فلسطيني.

وفي حين اعتبر «اختطاف» الفلسطينيين للجندي الاسرائيلي اعتداءً شائناً؛ استمر اعتبار الاحتلال العسكري للضفة الغربية، ومواصلة الاستيلاء المنتظم على الموارد الطبيعية، وبشكل خاص على المياه، من قبل جيش «الدفاع»(!) الاسرائيلي ليس اكثر من قضية مؤسفة وكأنها ليست سوى حقيقة لا بد منها في الحياة. هذا الموقف ذو المعايير المزدوجة هو الموقف النموذجي العام والمتبع على الدوام من قبل الغرب كرد على ما حل بالفلسطينيين واراضيهم التي اعترف لهم بها بموجب الاتفاقات الدولية المبرمة خلال السنوات السبعين الماضية.

واليوم يجر الانتهاك انتهاكاً آخر، وتسعى القذائف المصنوعة محلياً لمواجهة الصواريخ المتطورة، التي تستهدف الامكنة الفقيرة التي يقيم بها المحرومون من حقوقهم، والذين ما زالوا بانتظار ما كان يعرف ذات يوم بـ«العدالة».

القذائف والصواريخ التي تمزّق اجساد البشر بشكل مريع ـ من سوى القوّاد العسكريين يجرؤ على نسيانها؟!

لكل استفزاز من يدافع عنه ومن يعتبره ذريعة استفزاز مضاد، لكن الخلافات في الرأي والاتهامات والانذارات جميعها لا تخدم غير الهاء العالم وتحويل اهتمامه بعيداً عما يجري على ارض الواقع من ممارسات عسكرية واقتصادية وجغرافية ذات تداعيات طويلة الامد؛ هدفها السياسي لا يقل عن تصفية الشعب الفلسطيني.

لذا، لا بد من التصريح عالياً وبكل وضوح: ان الممارسات الجارية حالياً، نصف المعلنة ونصف المقنّعة، التي تستهدف تصفية الشعب الفلسطيني، تتقدم بسرعة هذه الايام، وفي اعتقادنا، لا بد من تسليط الاضواء عليها ومقاومتها بشكل متواصل ودون ادنى هوادة.

**الموقعون:**

**طارق علي، راسل بانكس، جون برجر، نعوم تشومسكي، ريتشارد فالك، ادواردو غاليانو، تشارلز غلاس، نعومي كلين، دبليو. جي.. تي ميتشيل، هارولد بينتر، ارونداتي روي، خوسيه ساراماغو، جيوليانا سجرينا، جور بيدال، هوارد زين.**

**فلسطين ولبنان، اشارة حول بيان لخمسة عشر مثقفاً أجنبياً**

**نجوان درويش**

لا يستطيع المرء ان يجد تفسيراً لعار الصمت الكوني حيال ما تتعرض له لبنان وفلسطين والعراق ـ هذا الاخير صار احتلاله وقتل ابنائه خبراً روتينياً من الدرجة الثالثة في سلّم الفضائيات! صمت لزج كريه لا يقتصر على دوائر القرار السياسي الغربي التي تعودنا نذالتها، وانما يشمل الدوائر الثقافية الغربية ايضاً والتي لم يصدر عنها حتى الآن سوى شذرات مواقف فردية لم تمنحها الميديا الغربية سوى هوامش وليس بمستطاعها ـ حتى على المدى البعيد ـ صنع حركة تؤثر في الرأي العام وسياسات «المركز الغربي». ويبدو ان موجة الحرّ الشديد التي تجتاح اوروبا وموسم عطلة الصيف الذي يراوح بين منتصف تموز (يوليو) ومنتصف آب (اغسطس)، لها اثرها على «بطء» حركة الوعي العالمي بفظائع الفاشية الاسرائيلية، في شيء شبيه الى حد ما بما حصل مع المذابح الاسرائيلية في غزة حين غطّت حمى مونديال كأس العالم عليها، الى حد كبير؛ حتى لتذهب المخيّلة بالمرء الى ان الغرب لن «يدرك» ما يحصل الا حين تقصف الطائرات الاسرائيلية برلين ولندن وباريس وتشتبك دبابات الاحتلال مع المقاومين الايطاليين في ريف توسكانا!

***

منذ نحو اسبوع اصدر اربعة مثقفين غربيين مرموقين، من بينهم حائزان لجائزة نوبل في الادب، بياناً حول «الفصل الاخير» من الجريمة الاسرائيلية على الشعب الفلسطيني، حيث يقول بيانهم ان الهدف السياسي لما يجري حالياً «لا يقل عن تصفية الشعب الفلسطيني» وانه ينبغي كشف هذه الممارسات و«مقاومتها بشكل متواصل ودون ادنى هوادة». ورغم جرأة البيان وخطابه الاخلاقي الذي يستحق بالفعل تقديراً واحتراماً عميقين في سياق حالة شبه الصمت التي تصدر عن دوائر الثقافة الغربية وانحطاط الخطابات الصادرة عن الحكومات الغربية وتغطيتها بذلك لجرائم «اسرائيل» ـ لا ننسى بالطبع الدور «المشرف» للحكومات العربية البائسة، الا ان هناك ملاحظة اساسية لن تمنعنا صداقة اكثر هؤلاء المثقفين للشعب الفلسطيني وقضيته من تسجيلها، وهي ملاحظة ليس فيها ادنى انتقاص من قيمة البيان والتقدير لموقف اصحابه، ولكن توقيت نشر هذا البيان يستدعيها.

والملاحظة هي خلو البيان من اية اشارة للعدوان الاسرائيلي الامريكي على لبنان. وقد يتساءل المرء عن معنى غياب اية اشارة الى الجريمة الكبيرة والمذابح التي يتعرض لها الشعب اللبناني في بيان جريء واخلاقي بامتياز بادر اليه اربعة مثقفين كبار، هم: الكاتب والناقد الفني البريطاني جون برجر والكاتب المسرحي البريطاني هارولد بينتر (نوبل 2005) والروائي البرتغالي خوسيه ساراماغو (نوبل 1998) والمفكّر الامريكي عالم اللغويات نعوم تشومسكي، ووقّعه في وقت لاحق احد عشر مثقفاً مرموقاً من بينهم مثقفون من اصول غير غربية ويكتبون بالانجليزية كالمفكر الباكستاني طارق علي والروائية والناشطة الهندية ارونداتي روي، واسماء اخرى مثل الكاتب والمؤرخ الاورغواني ادواردو غاليانو، والحقوقي الامريكي ريتشارد فالك الاستاذ بجامعة برينستون احد ابرز الحقوقيين في العالم ـ من الذين اكدوا قبل سنوات مسؤولية «شارون» عن مذابح صبرا وشاتيلا، والروائي الامريكي راسل بانكس رئيس «برلمان الكتاب العالمي» ـ الذي ترأس وفد الكتاب العالميين في زيارتهم التضامنية الهامة لفلسطين في آذار (مارس) 2002، واسماء اخرى ليس اهتمامها مستجداً بالقضية الفلسطينية او بتعرية السياسات الاجرامية للولايات المتحدة و«اسرائيل»، حيث يعثر المتابع في تاريخ معظمهم على جملة مواقف اخلاقية شجاعة في وجه سلطات الظلم الكوني.

***

يتبادر الى الذهن وبشكل سريع تفسيران محتملان لـ«اقتصار» البيان على العدوان الاسرائيلي على الشعب الفلسطيني ـ كي لا نقول «غياب» الاشارة الى جرائم «اسرائيل» الفاشية وحلفائها ـ غير الصامتين هذه المرة– بحق لبنان. الافتراض الاول هو ان البيان قد تم التفكير به واعداده قبل بدء العدوان الاسرائيلي على لبنان وتأخر نشره الى وقت العدوان! وربما ان معدّي البيان تقصدوا قصره على ما يحدث في فلسطين في محاولة لاثارة انتباه العالم لما يحدث، وفي بالهم ان «اسرائيل» اخذت تستفيد من توجه الاهتمام الدولي (غير الفاعل اصلاً) الى جرائمها في لبنان – او الى «ازمة الشرق الاوسط» ـ بتعبير السي ان ان! ـ لتنفيذ مخططات تصفية الشعب الفلسطيني على ارضه بـ«حرية» اكبر. اميل شخصياً لهذه التأويلات وليس في نيتي الذهاب نحو فرضيات سلبية بحق مجموعة من انقى واشجع الاصوات في الغرب اليوم، والتي يبدو الضمير الغربي ـ دون اصوات مثلها ـ دمامل على مؤخرة كوندوليزا رايس، هذه الغولة التي لم يخطر لاطفال الجنوب اللبناني في اسوأ كوابيسهم انها موجودة في الواقع وانها «ستبتسم بحنان» وهي تفسح الطريق للموت القادم اليهم في احضان آبائهم وامهاتهم.

***

ربما صعّد من تساؤلاتي هذه، بشأن هذا البيان، الشعور الجمعي الفلسطيني ان ما يحدث على لبنان يحدث علينا ومن الصعب ان نستسيغ في هذا الوقت تضامناً لا يشمل اخوتنا اللبنانيين الذين ليس من قبيل ترديد الشعارات ولا البلاغة العاطفية، القول ان مقاومتهم الآن تدافع عن كرامة ومستقبل شعوب المنطقة العربية كلّها، قدر دفاعها عن لبنان وفلسطين.

***

انه لشيء يثير التقزز، مشهد «الرجل الابيض» غاطاً في قيلولته الحضارية، بينما تقوم سكرتيرته المدججة برؤوس نووية «اسرائيل» بشيّ وجوه الاطفال وايديهم الصغيرة وقلي اكبادهم وقلوبهم بزيت امريكي حتى تعد للعالم «وجبة سلام مُشبّعة»، تزعم ان «عرباً» قبل غيرهم سيأكلونها بشهية وعقلانية وبعد نظر.

ويكون المشهد مقززاً اكثر حين يهرول الاعمام المزيفون دون ان يجرؤوا على ازعاج «السكرتيرة» في اعمالها الانسانية: يصدرون بيانات حكيمة، يدفنون رؤوسهم في دماء القتلى، يرسلون «مساعدات» متلفزة، يحاولون التوسط الخ... ولا شيء يستدعي ازعاج القيلولة الحضارية للرجل الابيض او تكدير طائرات السكرتيرة... وعند احتدام الامور يدفنون رؤوسهم في مؤخرة العقلانية ويلوذون بثرثرة محسوبة او صمت يفترضون انه من دواعي السلامة العامة!

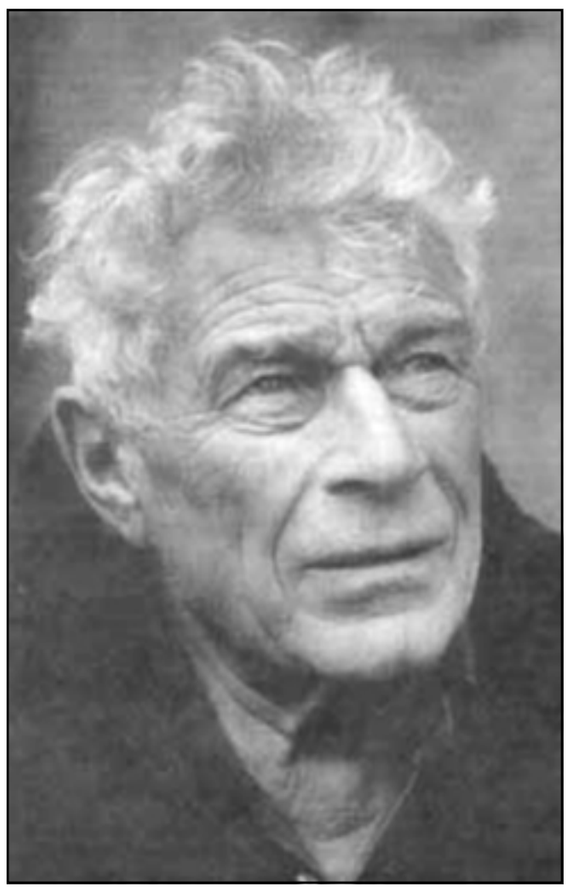

جون برجر

### «من السلط الى القدس» الصادر حديثا في عمان:

# أبحاث تعيد قراءة تاريخ الأردن وفلسطين القديم وترد على المقولات التوراتية المبطنة

**عمان ـ «القدس العربي»:**

يشتمل كتاب «من السلط الى القدس: ابحاث في تاريخ الأردن وفلسطين القديم» الذي صدر مؤخرا عن البنك الاهلي ودار ورد الاردنية للنشر للتوزيع في عمان على احدى عشرة مقالة كتبها الدكتور محمود ابو طالب، استاذ التاريخ القديم بالجامعة الاردنية، في الفترة ما بين عامي 1984 و2002، وجميعها منشورة، خلا واحدة. وكتبت ثمان من هذه المقالات اصلا بالانكليزية، ترجمها الى العربية عمر الغول، وتولى تحريرها بالاشتراك مع عفاف زيادة، وكلاهما من كلية الآثار والانثروبولوجيا بجامعة اليرموك.

وقد جعل المحرران المقالات المتعلقة بتاريخ الاردن القديم في الفصل الاول من الكتاب، وتلك المتصلة بتاريخ فلسطين القديم وبتاريخ العهد القديم في الفصل الثاني منه.

وأول مقالات الفصل الأول مقال عنوانه «نظرية نلسون غلوك المراوغة»، بين فيه المؤلف ان هذه النظرية عن تاريخ الاستيطان في الاردن في العصرين البرونزي الاوسط والمتأخر وفي العصر الحديدي الاول، والتي قبلها اكثر الباحثين حينا طويلا من الزمن، لم يكن لها صفة النظرية في يوم من الايام؛ اذ ان غلوك كان يقدم نهاية العصر البرونزي المتأخر وبداية العصر الحديدي في الاردن ويؤخرهما بما يتفق مع روايات العهد القديم ومع آراء شيخه، مبتدع علم الآثار التوراتي، وليم البرايت. وتعد هذه المقالة من اكثر مقالات الكتاب دلالة على استقلال الدكتور ابو طالب برأيه، وعلى نظرته الناقدة التي انتهت به الى رد اقوال من يعد رائد علم الآثار في الاردن.

وفي المقالة الثانية، «قائمة مجدو وجنوب الاردن في العصر البرونزي الاخير»، يتحدث المؤلف عن هذه القائمة التي ترجع الى زمن الفرعون المصري تحتمس الثالث (1504ـ1450 قبل الميلاد). وهي تتألف من مائة وتسعة عشر اسما، يتساءل الباحثون ان كان من بينها ما يشير الى مواقع في الاجزاء الوسطى والجنوبية من الاردن. ويكتسب هذا التساؤل اهمية خاصة؛ لان بعض الباحثين رأوا ان بعض اسماء الاماكن الواردة في القائمة تؤكد صحة رواية العهد القديم عن عبور بني اسرائيل الى فلسطين في القرن الخامس عشر قبل الميلاد. فعرض المؤلف عرضا تفصيليا لهذه القائمة، وللنظريات المختلفة فيها، وتناول الاسس المنهجية التي ينبغي من خلالها مطابقة الاسماء الواردة في القائمة باسماء المواقع في الاردن، وانتهى الى نفي اي دليل لغوي او آثاري على ذكر مواقع من وسط الاردن او جنوبه في قائمة مجدو، مما ينفي صحة الرواية التوراتية.

اما المقالة الثالثة، «عن السلط فيما قبل الاسلام»، فاطول مقالات الكتاب، عرض فيها المؤلف تقارير الرحالة والمستكشفين عن السلط وما وصفوه من آثار فيها، كما ذكر المكتشفات الاثرية في السلط حتى اواخر القرن العشرين، وخلص الى ان مدينة السلط القديمة كانت تقع على تل الجادور. واستعرض الدكتور ابو طالب المصادر التاريخية التي ذكرت الجادور في الفترات اليونانية، والرومانية، والبيزنطية، واجتهد في الفصل ما بين الشواهد التي تشير الى تل الجادور، وتلك التي تشير الى ام قيس؛ اذ يذكر هذان الموقعان في اكثر تلك المصادر بالاسم عينه، جدارا. ورجع المؤلف بعد ذلك الى الفترات الابكر، فنظر في الاشارات التاريخية الى تل الجادور في النصوص المسمارية من العصر الحديدي، وخلص الى ان KUR Gidirالتي تذكر في رسالة اشورية من القرن الثامن قبل الميلاد لا يصح ان يبحث عنها في فلسطين او في منطقة الكرك، وانما في منطقة السلط، وفي تل الجادور تحديدا.

ويتحدث الدكتور محمود ابو طالب في مقالته التالية عن «جلعاد في نقوش تجلت بليصر الثالث». فنظر في عدد من نصوص هذا الملك التي نشرت في القرن التاسع عشر، وصحح قراءتها، مبينا ان اسم جلعاد كان جلعاد فعلا، وليس جلعاز، كما حسب بعض الباحثين. واستعان المؤلف بعد ذلك بنصوص اخرى من زمن تجلت بليصر تذكر جلعاد اكتشفت في نمرود، فصوب قراءة الباحثين لها هي الاخرى، واكد صحة قراءته للنصوص المشار اليها اعلاه.

وتعد المقالة التالية معلما في تاريخ الدراسة للخطوط القديمة التي استخدمت في الاردن في العصر الحديدي. فقد اتخذ المؤلف من نشر ختم عليه نقش مؤاب مجالا لتحديد السمات المميزة للخط المؤابي. فعلى الرغم من ان هذا الختم قد اكتشف ضمن «حدود المملكة العمونية»، الا ان المؤلف عد خطه مؤابيا، وما تسنى له ذلك الا بعد ان استعرض سمات الحروف فيه استعراضا دقيقا، مقارنا اياها بمثيلاتها في الخط العموني، والآرامي، والعبري. وقد غدت هذه المقالة بعد نشرها مرجعا لدارسي الكتابات القديمة في الاردن.

اما المقالة الاخيرة في الفصل الاول فعنوانها «نبيات ونبيوت ونبيات ونبطو: اعادة النظر في المشكلة اللغوية». ويدل العنوان على ان المؤلف يبحث في علاقة لفظة نبيات الاكادية، بلفظة نبيوت العبرية، ونبيات العربية، ونبطو العربية، بعدما كان الباحث ادوين بروم خلص الى ان هذه الالفاظ جميعها تدل على الانباط. فخاض الدكتور محمود ابو طالب في نقاش لغوي تفصيلي، تركز، في المحل الاول، في المسائل الصوتية، ليؤكد ان بروم لم يثبت البتة ان التحول من نبيات، ونبيات، ونبيوت الى نبطو جاء بحسب مبادئ لغوية متفق عليها، فليس في النصوص الاشورية المذكورة اشارة الى الانباط.

فاذا ما انتقلنا الى الفصل الثاني الفيناه يبدأ بمقالة عنوانها «تاريخ اسرائيل التوراتية والمستشرقون، احتلال ارض كنعان مثالا». ويعرض المؤلف في هذا المقال الى مناهج المستشرقين في دراسة تاريخ اسرائيل التوراتية، ويتخذ من فهمهم لرواية احتلال بني اسرائيل لكنعان كما جاءت في العهد القديم مثالا على ذلك. ويبدأ المؤلف حديثه باستعراض روايات العهد القديم المختلفة لقصة الاحتلال، مظهرا ما بينها من اختلاف وتناقض. ويستعرض بعد ذلك التنقيبات الاثرية التي اجريت في الاردن وفلسطين، ويخلص الى ان الناظر في نتائجها، اذا ما قارنها برواية سفر يشوع بما فيها من عيوب، لا يمكن ان يعتقد بتاريخية قصة احتلال ارض كنعان. بعد ذلك استعرض المؤلف النظريات البديلة التي قدمها الباحثون لتفسير الطريقة التي احتل بها الاسرائيليون ارض كنعان. فعرض لنظرية «التسرب السلمي التدريجي» التي قال بها آلت وتابعه فيها نوت، ولنظرية مندنهول، ولصيغتها الماركسية التي وضعها غوتوالد، القائلة بان العبرانيين لم يدخلوا الى فلسطين، وانما مثلوا ثورة اجتماعية من داخلها. ويقابل هذه التصورات النظرية اعمال آثارية ميدانية، كان من اهم ممثليها عالما الآثار الاسرائيليان آهاروني وفنكلشتاين، وقد استنتج ثانيهما ان ظهور اسرائيل المبكرة نتج عن انهيار نسق مدن الدول في العصر البرونزي المتأخر، ولم يكن سببا لذلك الانهيار، فاكثر الاسرائيليين لم يأتوا من خارج كنعان، وانما انبثقوا من داخلها، فقد كانوا سكانا محليين، كانوا كنعانيين. وفي القسم الاخير من مقالته يتحدث الدكتور محمود ابو طالب عن منهج الادنويين، الذين يحدون من دور العهد القديم بوصفه مصدرا لتاريخ الاسرائيليين الى ادنى قدر ممكن.

والمقالة التالية «التعريف بالكتاب المقدس العبري»، مقالة عامة، تعرف بتاريخ العهد القديم العبري، وتبرز مساهمة عزرا في صياغته في القرن الرابع قبل الميلاد، ثم تعرض لترجمات العهد القديم العبري الى اليونانية واللاتينية، والى المحاولات الاولى لطباعته، ثم تستعرض اهم النشرات المحققة التي ظهرت في القرن العشرين، وختمت المقالة باستعراض لاصحاحات العهد القديم كما وردت في نشرة لينينغراد.

ويرجع المؤلف الى الحديث على الآثار بمقالتة «القدس واليبوسيون وداود». ويفحص المؤلف في هذه المقالة رواية العهد القديم التي تذكر استيلاء داود على يبوس، ويشير الى ان شراح العهد القديم والآثاريين لا يعرفون شيئا عن المنشآت المدنية التي بناها داود في اورشليم؛ غير انهم حملوا دائما روايتي العهد القديم عن استيلاء داود عليها على انهما تدلان على ان القدس اليبوسية كانت مدينة حسنة التحصين. ونظر المؤلف فيما بين ايدي الدارسين من دليل نصي وآخر اثري نظرا فاحصا، وخلص الى ان وجود السور الداودي اليبوسي يقوم على فرض اكثر مما يقوم على واقع، وان القدس في عهد اليبوسيين وداود كانت قرية صغيرة غير مسورة. ومن اهم ما تكشف عنه هذه المقالة هو ان اكثر المنقبين في القدس كانوا يحكمون الهوى في تفسيراتهم للبقايا الاثرية التي يعثرون عليها، منقادين في ذلك تماما لروايات العهد القديم.

وفي المقالة التالية يراجع المؤلف كتاب «التوراة جاءت من جزيرة العرب» للدكتور كمال الصليبي الذي يقوم على اطروحة ان تاريخ بني اسرائيل ,كما ترويه التوراة، قد اتخذ مساره بالكامل في ارض عسير وجنوب الحجاز في غرب شبه الجزيرة العربية. وبعد ان يعرض المؤلف فصول الكتاب، يبين ما يعتور استنتاجات الدكتور الصليبي من خلل، وذلك في ثلاثة محاور، هي تاريخ اللغة العبرية، والكتابات المكتشفة في فلسطين والاردن، والدراسة اللغوية لاسماء المواضع. وكشفت مناقشته لهذا المحور الاخير تهافت تناول الدكتور الصليبي اللغوي، وبينت ان الخوض في التاريخ القديم والنصوص القديمة له ضوابط منهجية دقيقة، ليس يصح الخوض فيها من باب الهواية.

وآخر مقالات الكتاب مقالة غير منشورة عنوانها «الخلق والطوفان في العهد القديم وفي بلاد ما بين النهرين»، عرض المؤلف فيها لقصتي الخلق والطوفان في العهد القديم وفي النصوص المسمارية التي كتبت في العراق القديم، وبين ما بينها من وجوه شبه، واستدل بذلك على ان اليهود عرفوا هاتين القصتين عندما كانوا مسبيين في بابل، وادخلوهما في العهد القديم عندما وضعوا نصوصه بعد عودتهم الى فلسطين في الفترة الفارسية.

وفي آخر الكتاب جمع المحرران الاحالات الواردة في المقالات المذكورة اعلاه في قائمة ببيبلوغرافية شاملة، واتبعاها بفهارس ضمت اهم ما جاء في الكتاب من اسماء اشخاص، واسماء مواضع.

وتتجلى للمتأمل في معالجة الدكتور محمود ابو طالب لموضوعات المقالات معرفته الواسعة بتاريخ الشرق الادنى القديم وبآثاره، كما انه افاد افادة كبيرة من معرفته الدقيقة بلغات الشرق الادنى القديم، الاكادية والعبرية منها بصورة خاصة. وتتسم معالجته الى ذلك بنظرة تحليلية، عميقة، ناقدة، يحاكم فيها الاستنتاجات العلمية التي اطلقها الباحثون السابقون محاكمة صارمة، مبينا ما كان منها غير ذي اساس، منبها الى ما وقع فيه بعض المشتغلين بتاريخ الاردن وفلسطين القديم من اتباع للهوى، في الدراسات التوراتية خاصة، كاشفا عن ان شيوع بعض الآراء ناشئ عن اخذ اللاحقين لآراء السابقين من غير نقد وفحص.

وفي كل حال، وعلى ما في الكتاب من دقة وعمق، عرض المؤلف فيه الافكار على نحو بين، وبنى الحجج بناء مترابطا، فاحسب ان القارئ، مختصا وغير مختص، سيجد في قراءته نفعا ولذة.

---

قص

**أحمد الرحبي***

# حكاية عمانية

## حسن بن مكران وشيروك الزطي إذ جرفهما السيل

■ هزئ حسن بن مكران بالوادي فجرفه السيل مع سيارته الكلوزر. هو جاء من الساحل لجأ إلى الواحة في إحدى هجرات الصيف التي اعتاد عليها سكان السواحل إلى واحات الداخل الجبلية هرباً من شدة الرطوبة الخانقة التي يبثها البحر وحرارة الشمس المحرقة في الصيف حيث الشجر الذي يقي من هذه الحرارة قليل، فلا شيء على وجه الأرض هناك إلا الرمل الساخن والهضاب البركانية السوداء التي تختزن حرارة النهار بطوله وتؤججها حمماً في المساء، والتي تنفذ في أجزاء كبيرة منها في عمق البحر وكأنها تغطس في مياهه لتطفئ الحريق الذي يشتعل فيها وتأخذ حماماً منعشاً من عناء ذلك.

لم يستطع أن يفرق المسكين بين موج البحر الذي ينكسر على الشاطئ مخلفاً رغوة بيضاء نظيفة أو الذي يمكن التعامل معه بمهارة والعوم في مياهه وبين تيار السيل الجارف يؤججه شبق سنين من القحط ينطلق في عنف من سفوح الجبال لا يلوي على شيء، جرفه الوادي حمله تيار المياه الذي يندفع بغزارة شديدة، هو وسيارته ضمن ما يحمل من أعجاز نخل يقودها أمامه مسجاة، وسقط متاع منازل مشرعة على مجراه وربما جائمين غرقى كان قدرهم كقدر حسن بن مكران، خبأها في لجته الغبراء التي توقظ الخيال عند أطفال الواحة بالأمنية في أن ما يرونه في غزارة تفيض بها ضفاف الوادي، شاي بالحليب اعتادوه من الأمهات في صباحاتهم مغمس بالخبز اليابس قبل أن يقذف بهم إلى سقيفة معلم الواحة الأعمى يقرأون كتاب الله على يديه بين إغفاءة عين وصحوة أخرى، يذيقهم الويل بعصاه.

القرويون من سكان الواحة وقد صروا اللؤم في لحاهم الطويلة المشعثة الشاخصون بالحسد والمكر من عيونهم التي يبللها بسائله الدبق صديد التراخوما وقفوا على حافة الوادي في مجموعات وقد بدوا أكثر حذراً من أن يفرطوا بأجسادهم الهزيلة الضامرة طعماً للسيل، فهم بانتظار أن تنجلي لجته ليلتفتوا لتصريف حصتهم من الماء التي خلفها خوة لمروره، يقتاتون عليها أعواماً بطولها.

لقد ظلوا يتداولون ويتناقلون تلك القصة بإضافات وزيادات شتى حتى طغت على تفاصيل الحادثة الأصلية وسط متعة أحاديثهم عن السيل في تجمعاتهم ومجالسهم عمدوا في رواياتهم بإضافاتها وزياداتها بايقاظ حسن بن مكران من مماته وتقليبه بين ألسنتهم على شتى صنوف الإدانة والاستهجان من فعلته الخرقاء حين جرؤ على اجتياز الوادي بآلته اللعينة كما يصفونها لا يحمل إلا تحدياً أرعن وتجاوزاً وقحاً لحدود سرمدية لا يقاس جسمه الحقير وإمكانيات آلته صنيعة الكفر بمدى قدراتها وقوتها، إذ لا حيلة لطينة أرضية خلقت من ماء مهين إلا الذوبان والامحاء في مياه نهر الفناء والعدم في نظرهم، «لقد كان كفرا مبينا. هزئ من مشيئة قدرة مقدرة. إلى الهلاك سعى، فحصد الهلاك»، لم يكن شيء يحضهم على التعاطف مع قصة حسن بن مكران وحادثة مماته غرقاً في السيل منذ أن أطلق حسن مكران ذات أصيل في سوق الواحة أمام أسماع الكثير منهم، تحدياً على اجتياز الوادي في عنفوان السيل بسيارته، والتي أعلى من شأنها بمديح خصالها أمامهم، معطياً هذا التحدي زخماً من التصميم والثقة بما هو مقبل عليه من فعل وضمانة نتيجته في الأخير. تعن لهم المقارنة في معرض هذه القصة الشديدة العبرة، مقارنة بطلها أو ضحيتها حسن بشيروك الزطي (الغجري) في حادثة مماثلة كانت مقدمتها تقطر استهزاء وتحدياً للوادي وكانت في نهايتها عبرة لكل معتبر حدثت مع سيول جائحة السبعين التي لم تبق ولم تذر من البشر والحيوان والشجر والحجر.

كان الزطي الحداد شيروك قد نزل ورهطه من الزط المنبتين من أواصر حمولات أهل الواحة وروابط العشيرة والقرابة بين سكانها المقذوفين في فراغ الحسب والنسب وفراغ اللامكان، على أطراف الواحة في خيام من الشعر مهلهلة منكبين في كد ونشاط في صناعة حدادتهم وممارسة الحجامة أما نساؤهم فاعتيادهن اليومي كان طرق أبواب البيوت بذل السؤال، وممارسة الختانة كاختصاص آل إليهن احتكاره من قديم الزمان، وعندما كانت رؤوس الجبال تتحسس على سفوحها ومنحدراتها أول بدايات تشكل مدحلة السيول التي تنحدر من ارتفاعات شاهقة وقد اندلقت قرب السحاب العملاقة بمخزونها من المياه بعنف كان يواتيه تلبد السماء واكتظاظها بالغيوم السوداء التي بدت واطئة قريبة من الأرض لفرط ثقلها بالماء. انهمك شيروك يتسلق جذع نخلة هرمة تتوسط الوادي استزرعها تيار السيل في مجراه فسيلة مشاعا وبما أنها كذلك أمل بمعالجة طلع عذوقها بالتخصيب أن يتمتع بجنيها في موسمها القادم وبرغم تحذيرات العارفين بخطورة كبيرة تدخل في غمارها تلك اللحظة الفاصلة من الوقت وقد بدت قبة السماء كثوب حداد داكن يزيده شخبه المتواصل منذ ساعة بالمطر الغزير قتامة تنذر بانفجار جنون السيل بهديره الجارف وبالنسبة لهذه النخلة فهو يستكمل مهمة جريانات سيول عديدة مصممة على تأثيث مجراها بنفسها تصميما لا يجرؤ أحد على تحديه أو الإخلال بنظامه، تسعى فيها سعياً دؤوبا لاقتلاعها من جذورها.

والسيل يخض مجرى الوادي بتيار مياهه المندفعة الهادرة في جنون تكتسح كل شيء يواجهها، تبدو النخلة للنظارة المجتمعين على ضفة الوادي يرفعون عقيرتهم بالاستغاثة وبالاندهاش في سعة حدقات عيونهم والهلع البادي على قسمات وجوههم من أثر المشهد الذي يعايشون تطوره نحو التأزم الكارثي، وتدا مغروسا في الماء فهي إلى منتصفها كانت مؤتزرة بالمياه التي كانت تضطرم حول ساقها الأعجف بتيار وتموجات هادرة كوحوش كاسرة قد أخلت الفرصة السانحة بينها وبين فريستها، وكان شيروك الذي يتدلى من أعلى القمة يبدو كسعدان خانه ذكاؤه.

---

* كاتب من عُمان